مجلة الحقيقة للعلوم الاجتماعية والانسانية
EL - HAKIKA (the Truth)
Journal for Social and Human Sciences

المجلد: 23 / العدد: 01 / السنة: 2024 ص ص:122–137

أهداف التربية وغاياتها في فكر مالك بن نبي التربوي

The Goals And Objectives of Education in Malik Bin Nabi's Educational Thought

د. أمحمد شيلي[1*]، أ.د. لعريبي أحمد[2]

1. **جامعة** أحمد درايعية (أدرار) **mahammedcheli@univ-adrar.edu.dz**

2. جامعة أحمد درايعية (أدرار) ahmed2003k@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2023/11/20 **تاريخ القبول:** 2024 /02/29 **تاريخ النشر:** 2024/03/31

ملخص:

إن القراءة العامة لكتابات مالك بن نبي (1905–1973 م) وما تحمله من أفكار نهضوية هادفة إلى تغيير الإنسان والأخذ بيده إلى ما من شأنه أن يتقدم به في سُلّم الحضارة بما يملكه من عقل ويد وقلب، لَتُمَثل إلهاماً لدى الباحث في فلسفة التربية عن مختلف المرتكزات الفلسفية في فكر مالك التربوي.

ولذلك جاء هذا البحث مستهدفا الأهداف والغايات التي حددها مالك لفلسفته التربوية. تلك الأهداف والغايات التي وإن تعددت واختلفت، إلا أنها اجتمعت حول التغيير والنهضة كهدف، وبناء إنسان الحضارة كغاية. ليكون بذلك الإنسان محوراً أساسيا لكل هدف أو غاية تربوية مقصودة.

الكلمات المفتاحية: تربية؛ فلسفة التربية؛ فكر تربوي؛ أهداف التربية؛ غايات التربية؛ مالك بن نبي.

Abstract:

The general reading of Malik bin Nabi's writings and the renaissance ideas they carry aimed at changing man and taking him by the hand to what would advance him in the ladder of civilization with what he possesses of mind، hand and heart, to represent an inspiration for the researcher in the philosophy of education about the various philosophical foundations in Malik's educational thought .

* **المؤلف المرسل**

Therefore, this research aimed at the goals and objectives set by Malik for his educational philosophy. Those goals and objectives that، although numerous and different, but they gathered around change and renaissance as a goal، and building human civilization as an end. So that the human being is the main focus of every intended educational goal or purpose.

Keywords: education; philosophy of education; educational thought; goals of education; objectives of education; Malik bin Nabi.

مقدمة:

يُعد مالك بن نبي واحدًا من أبرز مفكري ومصلحي الأمة الإسلامية في العصر الحديث، وذلك بالنظر إلى مشروعه الحضاري الذي سعى من خلاله إلى النهوض بالأمة من مختلف المستويات؛ الدينية، الاجتماعية، الثقافية... مشخصًا ومعللًا أسباب تخلفها وتأخرها عن الركب الحضاري، ووقوعها فريسة للاستعمار الغربي.

ولعل من أبرز الجوانب التي بنى عليها مالك بن نبي مشروعه النهضوي هو التربية. ذلك أن مشروع بناء إنسان الحضارة عند مالك يُرسى على التربية الصحيحة والهادفة إلى تغيير الإنسان ودفعه نحو تحقيق التقدم العلمي والحضاري. ولا شك أن إسناد النهضة والتقدم إلى التربية يثير في ذهن الباحث الكثير من الفضول نحو معرفة مدى قيمة التربية ومفعولها الخارق في التأثير على حياة الإنسان.

وهو الأمر الذي دفع بنا ـ في مقالنا هذا ـ إلى البحث عن بعض جوانب الفكر التربوي عند مالك بن نبي وأبعاده الفلسفية، وذلك من أجل الوقوف على تصورات مالك التربوية والغايات الكبرى التي ينشدها من وراء التربية. في محاولة للإجابة عن الإشكال التالي: ما هو مفهوم التربية عند مالك بن نبي وما هي أهدافها وغاياتها؟

وللبحث في هذا الموضوع، ارتأينا تناوله من خلال عدة عناصر أساسية، هي: التعريف الموجز بمالك بن نبي، مفهومه للتربية، أهداف التربية، وغاياتها. وذلك على النحو التالي:

1- التعريف بمالك بن نبي

ولد مالك بن نبي سنة 1905م بمدينة قسنطينة وانتقلت أسرته إلى مدينة تبسة ثم لحق بها بعد فترة قضاها في قسنطينة عند أقاربه، وفي تبسة أنتظم في حلقة لدراسة وحفظ ما تيسر من القرءان الكريم، وأتم تعليمه الابتدائي والإعدادي بها، ثم رجع إلى قسنطينة لمواصلة دراسته الثانوية التي أنهاها سنة 1925 م. وفي هذه الفترة بدأ وعيه يتكون وهو متأثراً بالحركة الإسلامية التي يقودها الإمام عبد الحميد بن باديس بهدف تحرر عقول الجزائريين، وتغيير ما بأنفسهم، وتحريرهم من الفكر الميت الذي يستهدف محو الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية. غير أن إدارة المؤسسة التي كان ابن نبي يزاول تعليمه بها قد فهمت من أقواله ولاحظت في تصرفاته بأنه ليس من السهل إيقاعه ضحية لمكائدها، فقررت وضع قراءات مالك بن نبي تحت المراقبة.

وفي سنة 1927م التحق بمدينة أفلو للعمل في محكمتها حيث أدخل إلى سكان المنطقة لأول مرة مجلة الشهاب للإمام بن باديس التي تحملت مسؤولية الدفاع عما بقى من تلك الفضائل والقيم وإحياء ما مات منها وإصلاح ما افسد الاستعمار، ولم تطُل إقامة بن نبي في أفلو فانتقل إلى مدينة شلغوم العيد غير البعيدة عن قسنطينة وكان وجوده في هذه المدينة فرصة ليقارب فيها بين الإنسان الجزائري الذي فقد فضائله أو افقده الاستعمار فضائله حيث كانت المدينة مركزاً كبيرا للمستعمرين، وبين الإنسان الجزائري في أفلو الذي احتفظ بتلك الفضائل. ولم يلبث بشلغوم العيد إلا قليلاً، إذ سرعان ما استقال نهائياً من الوظيفة التي أُسندت إليه ليرحل من الجزائر إلى باريس لمواصلة دراسته، وكان ذلك في سنة 1930م.

وفي سنة 1931م تزوج مالك من امرأة فرنسية أسلمت على يديه. وساهمت زوجته في تنمية ذوقه وحسه الجمالي. واستطاع أن يوسع شبكة علاقاته الفكرية والثقافية في باريس، فالتقى هناك

بشكيب أرسلان وغاندي، وكان له حضور متميز في أوساط المغاربة والجزائريين حتى لقب بزعيم الوحدة المغربية، كما استطاع أن يقيم جسورا من التواصل والتعارف مع أبناء المستعمرات الأخرى.

ولقد التحق بمدرسة اللاسلكي والتي تخرج منها مهندساً كهربائياً سنة 1935م. و أتيح لابن نبي أن يتعرف على مشكلة أمته التي كانت صورة مكبرة عن مشكلات وطنه ابتدأ من أول محاضرة ألقاها في ديسمبر1931م بعنوان "لماذا نحن مسلمون"التي جاء رد فعل السلطات الفرنسية عليها سريعاً، حيث استجوبه البوليس الفرنسي بشأنها، وكذلك مثل الجزائر في "جمعية الوحدة العربية" التي تأسست في باريس كما أشرف فيما بعد في مرسيليا على نادي "المؤتمر الجزائري الإسلامي" وفي باريس عاش تجربة غنية بالتعرف على الحضارة الغربية ولم يجرفه التيار.

وبعد العودة إلى فرنسا سنة 1939 م. تفرغ ابن نبي في باريس للعمل الفكري، فعمل صحفيا بجريدة اللوموند، وأصدر أول كتبه وهو ''الظاهرة القرآنية''، ثم توالت كتبه في باريس، فأصدر كتاب ''شروط النهضة'' سنة 1949 م، وكتاب ''وجهة العالم الإسلامي'' الذي عرض فيه مفهوم ''القابلية للاستعمار''، وكذلك كتاب ''لبيك''.

ولم يهنأ مالكٌ بالعيش هناك إذ سرعان ما أوصد الفرنسيون الأبواب في وجهه، مما عجل بخروجه من فرنسا سنة 1956م متجهاً نحو القاهرة حيث أصدر كتابه "فكرة الإفريقية الأسيوية" ثم تلته كتب أخرى.

ويدين مالك بن نبي – في ما بلغه من مستوى علمي وفلسفي وديني – إلى جملة من المؤثرات التي فعلت فعلها في بلورة فكره، نذكر منها: حكايات جدته عن العمل الصالح وثوابه، والتي شكلت تكوينا مبكرا لوعيه ووجدانه الديني، وتأثر بأمه في ورعها وحرصها على تعليمه. كما تأثر مالك بمعلمه الفرنسي ''مارتان Martin'' في تذوقه للقراءة، وتأثر بمجلة ''الشهاب'' التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين، برئاسة عبد الحميد بن باديس، وتأثر بالمنهج الديكارتي في التفكير الذي بدد سيطرة الخرافة على عقله.

ومن جملة ما قرأ مالك بن نبي نجد كتابين؛ كان لهما أبلغ الأثر في حياته، هما ''الإفلاس المعنوي هل هو للسياسة الغربية في الشرق؟'' للشاعر الإسلامي'' أحمد محرم''، و''رسالة التوحيد'' للإمام محمد عبده، وساعده هذان الكتابان على رؤية أوضاع العالم الإسلامي، كما قرأ كتاب ''أم القرى'' للكواكبي، وقرأ لعدد من الكتاب الفرنسيين. وكان يتردد على إحدى البعثات التبشيرية الإنجيلية، فتعرف على الإنجيل، وناقش هؤلاء المبشرين في أدق الأفكار، فضلا عن تعرفه على تلامذة الشيخ ''عبد الحميد بن باديس''. وقد تلازمت هذه الثنائية الثقافية بين الحضارتين الإسلامية والغربية في التكوين الفكري لمالك، وكانت لها انعكاساتها الواضحة في كتاباته بعد ذلك، حيث تميزت بالمزاوجة بين المصدرين، بين الانتماء لحضارة الإسلام والرغبة في التطور.(**عاشور.2023**).

ولقد أراد مالك بن نبي أن يكون للعالم الإسلامي، فتم تعيينه سنة 1957م مستشاراً في المؤتمر الإسلامي، وبدأ يعقد في القاهرة ندوة فكرية كل جمعة يحضرها الطلبة والأساتذة من مختلف الدول الإسلامية فأُسند إليه إدارة التعليم العالي.

وفي عام 1967 م استقال من مناصبه، وتفرغ للعمل الفكري ولتحصيل الشباب المثقف بالفكر السليم والمنهج القويم، وألقى محاضرة هامة في سوريا عام 1972 م تحت عنوان ''دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين'' اعتبرها الكثيرون أنها وصيته للعالم الإسلامي قبل الموت. وبالفعل، لم يطل به العمر كثيرا إذ توفي في الجزائر في (4 شوال 1393هـ = 31 أكتوبر 1973م) وهو في الثامنة والستين من عمره. (**الميلاد، 1998، ص25**)

2 – مفهوم التربية عند مالك بن نبي

لعل من الصعوبة بمكان أن تجد تعريفا واضحاً وصريحاً للتربية في كتابات مالك بن نبي، ذلك أنه لم يول اهتماما بالغاً بتناولها كمصطلح من زاوية إبستمولوجية. وإنما تناولها في مفهومها المتداخل مع مفهوم الثقافة لديه، حيث كثيراً ما

أورد مفهوم التربية متضمنا في المفهوم العام لقضايا الثقافة التي تشمل كل ماله علاقة بتكوين الإنسان فكرياً وروحياً وعملياً ...، لتكون بذلك كل واحدة منهما تمثل مظهراً للأخرى، ولذلك فإن الثقافة ترسم خط التربية، والتربية تنمي الثقافة، يقول مالك: " إن من أوليات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، ولذلك يجب أن نحددها عاملاً تاريخياً لكي نفهمها، ثم نظاماً تربوياً تطبيقياً لنشرها بين طبقات المجتمع"(**بن نبي،2000،ص76**).

وعليه تكون التربية عند مالك "عملية تثقيف متواصلة"، متمثلة في تلك العملية النفسية التي تقوم في أولى مهامها بتركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد، أي في بنية إنسان ما بعد الحضارة (**ميهوب،2013،ص197**).

ويرى مالك أن التربية هي منهج هام وقويم للمجتمع ككل، إذ تستمد أصولها من العلوم الاجتماعية، فيقول: " التربية هي المنهج الذي يهدي سير مجتمع ما،... تستقي قواعدها العامة من علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس" (**بن نبي،2002أ،ص75**).

والى جانب كون التربية منهجاً عاماً للمجتمع، فهي كذلك وسيلة فعالة لتغيير الإنسان نحو الأفضل، وتعليمه طرق العيش وسبل التكيف مع الغير. يقول مالك: " التربية وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكوّن معهم مجموعة القوى التي تغير ترابط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ"(**بن نبي،2002أ،ص100**).

وهكذا يكون مالك بن نبي قد ربط مفهوم التربية بمفهوم الثقافة، ونظر إلى ذلك كله في إطار حركة وتغيير الإنسان في سبيل تحقيق تحضره.

3 – أهداف التربية عند مالك بن نبي

للتربية أهداف سامية عند مالك بن نبي، وهي ترتبط أساساً بفلسفته الاجتماعية، وتصوره للإنسان والكون والحياة. ولئن كانت التربية عند مالك تتداخل في مفهومها مع الثقافة، فإن أهدافها ترتبط أساساً بتلك الحركة التثقيفية الرامية إلى تحقيق التغيير في حياة الإنسان والمجتمع، أو ما يُعبر عنه بالتحضر.

فالحضارة بناء داخلي متدرج ومتواصل، يبدأ من الواقع. واقع الإنسان والكون والحياة، وأن كل تغيير لهذا الواقع ينبغي أن يكون هدفاً للتربية. والتغيير عند مالك يتم وفق طريقتين؛ سلبية وإيجابية.

إذ أول ما يبدأ التغيير بالطريقة السلبية القائمة على التخلية، أي التخلي عن كل ما شاب العادات والتقاليد والقيم الثقافية والخلقية من شوائب، وتصفيتها مما عُلق بها من عوامل ضعف وتأخر حضاري.

أما الطريقة الإيجابية فتقوم على التحلية، أي التحلي بالعادات والتقاليد والقيم الخلقية والثقافية الموجبة، وتدعيمها بكل ما من شانه أن يبعث الحياة ومظاهر التحضر من جديد.(**بن نبي، 2000، ص71**)

وعليه، فالتخلي عن رواسب الماضي الثقافي، والتحلي بدعائم التحضر، ذلك ما يُحدث الوثبة الحيوية والتجديد في حياة الإنسان. وبهذا يكون التجديد أو التغيير أبرز أهداف التربية عند مالك، وهو يرتبط بالوسائل الأولية لدى الإنسان وهي القلب(دوافع القلب)، اليد(حركات اليد)، والعقل(تدبير العقل).

أما عن التفصيل في مختلف أهداف التربية عند مالك بن نبي، فنرى بأنه من الصعوبة بمكان حصرها في عدد معين من الأهداف، لأنها متعددة الجوانب ومتشعبة الأبعاد. ولذلك فبدلاً من التقسيم الجزئي سنكتفي بالحديث عنها في أقسامها العامة، وذلك على النحو التالي:

3 . 1 – أهداف ذات أبعاد دينية وروحية

من أسمى أهداف التربية عند مالك بن نبي نجد تدعيم القيم الروحية والدينية التي من شأنها أن تدفع الإنسان بما تمده من قوة إرادة وحيوية وحماس في سبيل التقدم ونيل المقاصد النبيلة، التي يُعزى إليها تغيير الواقع الاجتماعي والأخلاقي للفرد والمجتمع، وتبعد صاحبها عن التواكل والخضوع للغير.

والجدير بالذكر أن تدعيم القيم الدينية والروحية بصفتها هدفاً عاماً للتربية، نجده يتجلى من خلال عدة أهداف جزئية لا بدا منها في سبيل تحقيق ذلك المقصد، نذكر منها؛ تربية الإرادة، وتنمية الوعي بالذات، وغرس الروح الإسلامية، وتحقيق النمو المتكامل للفرد.

فلتنمية الإرادة وتعزيزها أهمية بالغة عند مالك بن نبي، فهي التي تُفضي إلى إرادة التنمية التي هي "التغيير" الذي جعل منه مالك محور فلسفته في الحضارة. منطلقاً من قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.**(سورة الرعد، الآية 11)**.

فالتغيير حسب مالك يبدأ بالنفس قبل المجتمع، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعل ذلك موكولاً للإنسان، لأن الإنسان المسلم مستخلف وحامل لرسالة حضارية عالمية مستهدية بنور الوحي ليقرر المصير الأفضل للإنسانية.**(لمشيشي، 2012، ص150)**. يقول مالك: "إنها لشرعة السماء: غيّر نفسك تغيّر التاريخ"**(بن نبي،1986، ص32)**.

ولعل من هذا المنطلق يأتي تأكيد مالك بن نبي على تنمية الوعي بالذات لأنه هو مناط الإرادة وتنميتها، وذلك ب "أن يعرف الإنسان خصوصيته الثقافية وبعده الحضاري، وطبيعة الصراع بين الأمم والشعوب، وما هي وسائله وأهدافه، الشيء الذي يفضي إلى وعي كامل بالمشاريع الاستعمارية، ومعرفة منهجية لطرق الخروج من بوتقة التخلف، ورؤية شاملة وواعية بأساليب التنمية والتطور"**(ميهوب،2013، ص235)**.

أما عن الروح الإسلامية، فلها قوة عجيبة من حيث رفع همم الإنسان وتفانيه في سبيل نيل مقاصده، فحسب بن نبي أن التاريخ قد أثبت بأن أقوى دافع لنهوض الأمم وصنع بطولاتها هو الدين والتشبع بمبادئه، حيث يقول: "والحق أن تطور الإنسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية، تلك التي تطبع حياة الإنسان وعمله على وجه البسيطة"(**بن نبي، 2002أ، ص56**)، بمعنى أن المشاعر الدينية تلعب دوراً فاعلاً في مجرى الأحداث التاريخية للإنسان.

ولعلنا نجد لرأى مالك بن نبي ما يوافقه من أراء مفكري الأمة المعاصرين من أمثال محمد عبده ومحمد إقبال، حيث يقول هذا الأخير:

إن الحقيقة التي يكشفها العقل المحض لا قدرة لها على إشعال جذوة الإيمان القوي الصادق، تلك الجذوة التي يستطيع الدين وحده أن يُشعلها، وهذا هو السبب في أن التفكير المجرد لم يؤثر في الناس إلا قليلاً، في حين أن الدين استطاع دائماً أن ينهض بالأفراد، ويبدل الجماعات بقضها وقضيضها، وينقلهم من حال إلى حال. (**إقبال،1967، ص207**).

أما عبده، فيقول في السياق نفسه: «أول مبدأ يجب أن يكون أساسا لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة، والنفوس بالصفات الكريمة، هو التعاليم الدينية الصحيحة» (**رضا،2012 ، ص81**).

أما في ما يخص النمو المتكامل للفرد، فيتحقق بموجب التربية الهادفة عند مالك بن نبي، وهو لا يتأتى إلا بالاهتمام بالإنسان، والسعي إلى التغيير على مستوى الفرد والمجتمع. وأن يشمل التغيير سائر الجوانب مندفعاً بالدين الاسلامي ومتطلعاً لتحقيق التحضر في شتى مجالات الحياة. ف«الإنسان المسلم المتكامل هو النموذج التربوي للفرد

المنشود، أو الهدف الذي ينبغي على التربية عندنا أن تجعله محور اهتمامها وغاية جهودها من أجل تحقيقه على أرض الواقع»(**النقيب، 2009، ص261**).

3 . 2 – أهداف ذات أبعاد اجتماعية وأخلاقية

لقد أولى مالك بن نبي للجانب الاجتماعي والأخلاقي أهمية كبيرة، وذلك بمقتضى المستوى الحضاري المنشود، من علم وأدب وفن ... وما يتطلبه من مقومات ذاتية لدى الأمة، ومن قيم أخلاقية عالية. وكل ذلك ينبغي أن يكون هدفاً على التربية أن تضعه نصب عينيها، على نحو؛ تنمية الذوق العام، والشعور بالواجب، وتجاوز المعوقات الهدامة، وتنمية الروح العلمية.

فمن حيث تنمية الذوق الجمالي، يرى مالك بأن الحضارة لا تُبنى بعيداً عن الفن، ولذلك كان هذا من أوجب ما ينبغي استهدافه في تكوين إنسان الحضارة. ف "التحضر هو أن نُعلِّم كل فرد فن الحياة مع زملائه"(**بن نبي، 2002أ، ص 99**).

فلكي يكون عمل الإنسان متميزاً يجب أن يتجاوز مجرد الإنجاز الذي قد يتساوى فيه الإنسان مع الحيوان البهيم إلى أن تتوفر فيه شروطاً أخرى تضفي عليه طابعا فنياً تجعل منه ذا معنى ومغزى في الآن نفسه(**النقيب،2009، ص94**). و"الذوق الجمالي إذا ما شاع في مكان شاعت فيه السكينة والطمأنينة، ونعومة المعاملة وجمال السلوك، وإن انعدم في مكان خشنت المعاملة وساء السلوك وكثر هياج الأعصاب واضطرابها"(**ميهوب، 2013، ص139**). وعليه، فهو يمثل إلهاماً ودافعاً محفزاً على تقديم الأفضل والمبادرة أكثر، يقول مالك:" فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل وتوخياً للكريم من العادات".(**بن نبي،2000،ص82**).

وهكذا يكون البعد الجمالي هو القيمة التي تنقل الفعل الإنساني من الكم إلى الكيف ويُضفي عليه بعداً حضارياً مهماً، سواء كان ذلك الفعل متعلقاً بالفرد أو بالمجتمع لأن "الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال؛ بل أن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة"(**بن نبي،1986، ص101،100**).

وما دام الامر كذلك فلا بدا من جعل تنمية الذوق الجمالي هدفاً ضرورياً للتربية.

أما الشعور بالواجب، فيقتضي عند مالك تقديمه على الحق، لأن من أهم التحولات الخطيرة التي أصابت المسلم اليوم هو أن حولته إلى إنسان مستهلك لكل ما يقع بين يديه، متكاسلاً عن أداء كل ما يتعين عليه القيام به، ومتواكلاً على غيره من أجل توفير ما هو ضروري له. وهي وضعية مأسوية على التربية أن تستهدفها من أجل إحياء روح التضحية والتفاني في العمل وكل ما من شأنه بعث إنسان الحضارة من جديد. ولقد صور لنا مالك بن نبي هذه الحالة المتردية للإنسان في قوله:

> إن مجتمع ما بعد الموّحدين خلق كائناً على صورة الأميبة (Ameba)، كائناً مُتبطِّلاً يتسكع، حتى إذا رأى فريسة هينة أبرز إليها ما يشبه اليد ليقنصها ثم يهضمها في هدوء ... فدرج على هذا النحو خلال قرون خلت، اتكل فيها على عناية السماء يتبلغ به.(**بن نبي،2002 ب، ص141**).

لقد كان هذا هو حال مجتمع ما بعد الموحدين في نظر مالك بن نبي رغم أن المسلم قد علم من عقيدته بأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، إلا أن عقلية الإنتاج لديه قد أخلَت مكانها لعقلية الاستهلاك وبات غير قادر على إبداع الوسائل التي تمكنه من الاستجابة لحاجاته المختلفة.(**النقيب،2009، ص102**).

فمن خلال تشخيصه لهذا الواقع رأى مالك بأنه إذا أردنا بناء إنسان الحضارة فإنه لا مندوحة لنا من توجيه اهتمامنا التربوي نحو إحياء قيمنا وشعورنا بأهمية الواجب في سبيل نيل الحق، والابتعاد عن الأفكار الميتة والمميتة التي تهدم المجتمع وتقوّض بنيانه،

وتقف حائلاً أمام كل حركة تحضر فيه. وفي المقابل، يجب علينا تنمية الجانب العلمي وإثرائه، لأن كل الحضارات التي عرفها العالم ارتكزت على العلم والمعرفة الصحيحة كسبيل للتخلص من الجهل والفقر. غير أن العلم بمجرد العلم لا يكون مفيدا لبناء إنسان الحضارة ما لم يكن مقروناً بالعمل الذي يخرجه من النظر إلى الفاعلية والتطبيق.

وما تجدر الإشارة إليه كخلاصة لحديثنا عن أهداف التربية عند مالك بن نبي، هو أن ما تمت الإشارة إليه لا يعدو أن يكون مجرد جزء من كل. لأننا إذا ما أخذنا في الحسبان بأن الهدف الأساسي لدى مالك هو التغيير، تغيير الإنسان والسير به قُدُماً نحو التقدم، لأن "الحديث عن التغيير بصفة عامة عند مالك بن نبي لا ينفك عن أن يكون هدف المشروع كله في منهجيته الفكرية ومفاهيمه المركزية" (**لمشيشي،2012،ص138**). وعليه فإن كل الأهداف الأخرى ـــ سواء ما أدرجناه ضمن التقسيم العام أو التقسيم الجزئي ـــ إنما تأتي خدمة للهدف الأساسي الذي هو المشروع العام عند مالك والمتمثل في التغيير. وهنا لا يكون ما اكتفينا بذكره من أهداف ذات أبعاد روحية ودينية، أو ذات أبعاد اجتماعية وأخلاقية كافية، ما لم نُضف إليها أخرى ذات أبعاد معرفية واقتصادية وغيرها. وذلك لأنه حتى تكون النهضة شاملة والتحضر كاملاً يجب ألا نُهمل أي جانب من جوانب الحضارة. وهذا ما أدركه مالك وأحث عليه عندما راح يؤكد على ضرورة توجيه العمل، وتوجيه رأس المال، وتحقيق الكفاية الإنتاجية... لتكون لكل هذه التوجيهات مكانتها ضمن الأهداف العامة أو الجزئية للتربية في فلسفة مالك بن نبي.

4 – غايات التربية

إن الباحث عن غايات التربية في كتابات مالك بن نبي ليجد صعوبة جمة من حيث صعوبة الوقوف على نقاط محددة على غرار ما نجده عند الكثير من فلاسفة

التربية، وذلك لكون مالك قد تناول الموضوع متداخلاً في مفهومه مع مفهوم الثقافة في إطار مشروع عام وهو النهوض بالأمة.

ولذلك فإن حديثنا عن الغايات التربوية عند مالك لا يعدو عن كونه سوى استخلاصات عامة من مجمل كتاباته ارتأينا عرضها لتكون إضافة مهمة بعد الحديث عن الأهداف.

ولعل أبرز ما يستوقفنا في البحث عن تلك الغايات هو **"الإنسان"**. باعتباره نقطة محورية في فكر مالك التربوي، إذ لا حديث عن الثقافة، ولا النهضة، ولا التربية، ولا الحضارة إلا من أجل الإنسان. ومن هنا جاء حديثه عن بناء الانسان، وعن التغيير، وتنمية الإرادة، والوعي بالذات ... مستلهماً قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ (**سورة الرعد، الآية 11**). فتغيير واقع الإنسان إنما يتوقف على مدى قدرته على تغيير نفسه. ولهذا فإن مركزية الإنسان في فكر مالك بن نبي باعتباره الهدف والموضوع والأداة في ذات الوقت تجعل منه غاية كبرى للتربية. فلقد تناول مالك مشكلة التربية في إطار المنهج العام الذي ارتضاه وجعل الإنسان هو:

المركز في معادلة الحضارة (التراب – الإنسان – الزمن)، وحدد حالاته المختلفة حسب موقعه من العوالم الثلاثة(عالم الأفكار – عالم الأشخاص – عالم الأشياء)، كما أنه استوحى أطوار "الدورة الخالدة" والقيم المتحكمة في تحديدها من الحالات التي يكون عليها الإنسان في كل طور منها (الروح – العقل – الغريزة)، مفلسفاً أعراض العالم الإسلامي مجتمعة في مفهوم جامع للإنسان الذي يعاني عذاباتها: "إنسان ما بعد الموحدين"، كما قام بقياس فعالية المجتمع ومدى إطراد شبكة العلاقات الاجتماعية بأداء الإنسان ودرجة فعاليته الاجتماعية، فأكد على أهمية تغيير "إنسان ما بعد

الموحدين" في إطار ثقافته بمشروع تغييري سمّاه "البرنامج التربوي للثقافة". (**لمشيشي،2012،ص140**).

ومن النقاط التي يركز عليها مالك بن نبي اهتمامه التربوي من أجل الارتقاء بالإنسان، نجد "**تجسيد ثقافة التحضر**"، أي التجسيد العملي للتقافة الإسلامية والخروج بها إلى الواقع لتكون المناخ المناسب لنمو شخصية الإنسان المسلم، فيتعلم منها معنى الحياة واحترامها، وتُرسخ لديه معاني التكريم الرباني للإنسان. فكما أن البيئة المتخلفة هي التي أنتجت الإنسان المتخلف، فكذلك علينا، إذا أردنا إنشاء إنساناً متحضراً، أن نصنع مجتمعاً متحضراً ليكون بيئة صالحة لنمو شخصية الإنسان والتشبع بمعاني الحياة وفن الحياة. (**النقيب،2009،ص219،218**).

ولعل من أبرز العوامل المؤثرة في بناء شخصية الإنسان المسلم والتي على التربية أن تضعها كغاية أساسية هي "**إحياء الدور الاجتماعي للدين**"، وذلك لما يحظى به الدين من قوة تأثير في الإنسان، لأن الحياة لا تستقيم بمعزل عن التدين. وعليه، فمن الضروري أن يسترجع الدين موقعه وتأثيره في حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً، لأن تراجع الإنسان على المستوى الحضاري كان مصحوباً بغياب الوظيفة الاجتماعية للدين. مما يجعل من مهام التربية السعي الحثيث من أجل تمكين الدين من تبوُء موقعه الطبيعي كعامل توجيه ومراقبة وتقويم للسلوك.

وما نستخلصه من خلال محاولة حديثنا عن غايات التربية عند مالك بن نبي هو أن الغاية الأساسية للتربية هي **الإنسان**، من حيث تغييره وبنائه والارتقاء به في سلم الحضارة، وأن في سبيل تحقيق هذه الغاية الكبرى، وجّهنا مالك إلى كل ما من شأنه أن يجعل ذلك ممكناً بل وحقيقياً على أرض الواقع من تجسيد ثقافة التحضر، وإحياء الدور

الاجتماعي للدين، وتنمية التفكير المنهجي، واستئصال مركب القابلية للاستعمار، وغيرها من النقاط التي تأتي كلها في سياق السعي للارتقاء بالإنسان وتحضره.

خاتمة:

وخلاصة القول، أن مالك بن نبي قد أقام فلسفته التربوية على أسس ومفاهيم غاية في الأهمية والتأثير، وبُعد النظر، ووضوح الهدف، ومشروعية الغاية. فهو وإن كان قد تناول مفهوم التربية متداخلاً مع مفهوم الثقافة لديه، إلا أن ذلك لا يعني قلة اهتمامه بها، إذ جعلها حجر الزاوية في مشروعه الفكري الذي هو بناء إنسان الحضارة. وجعلها أُساً ثابتاً في كل خطوة يقصدها المجتمع نحو التحضر. وأحاطها بأهداف وغايات سامية تجعل من الإنسان وتغيير واقعه مرتكزاً لها. فكان الإنسان بذلك هو الهدف والموضوع والأداة في كل محاولة تغيير اجتماعي في فلسفة مالك. ولذلك نرى بأن البحث في أهداف وغايات التربية عند مالك بن نبي على قدر بالغ من الأهمية، غير أن ذلك لا يقدم لنا صورة تامة عن حقيقة فلسفة التربية لديه ما لم تتم دراسة أسس وأبعاد التربية ومجالاتها ... ومقارنة فكره التربوي مع مفكري عصره. وذلك ما يمكن تناوله في مقالات أخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم, رواية حفص عن عاصم.

2- إقبال، محمد(1967). تجديد التفكير الديني في الإسلام.(ترجمة محمود عباس).القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.(العمل الأصلي نشر في سنة 1930).

3- بن نبي، مالك(1986). شروط النهضة.(ترجمة عبد الصبور شاهين). دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر.(العمل الأصلي نُشر في سنة1948).

4- بن نبي، مالك(2000).مشكلة الثقافة.(ترجمة عبد الصبور شاهين).دمشق: دار الفكر.(العمل الأصلي نُشر في سنة1959).

5- بن نبي، مالك(2002أ).ميلاد مجتمع.(ترجمة عبد الصبور شاهين).دمشق: دار الفكر.(العمل الأصلي نُشر في سنة1962).

6- رضا،محمد رشيد(2012).تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده.ج2.القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب.

7- لمشيشي، مولاي خليفة(2012).مالك بن نبي، دراسة استقرائية مقارنة. ط1. دمشق: دار النايا ودار محاكاة.

8- الميلاد،زكي(1998).مالك بن نبي ومشكلات الحضارة.ط1.دمشق وبيروت: دار الفكر ودار الفكر العاصر.

9- النقيب،عمر(2009).مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي.باش جراح،الجزائر:الشركة الجزائرية اللبنانية.

الأطروحات:

10- ميهوب، العابد(2013-2014).الفكر التربوي عند مالك بن نبي.رسالة دكتوراه في علم اجتماع التربية،غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد خيضر.بسكرة.

المواقع الإلكترونية:

11- مصطفى عاشور.مالك بن نبي فيلسوف مشكلات الحضارة. تم استرجاعه على 12:23 في يوم: 11 /2023/06.على الرابط: https://islamonline.net/archive/.